الصولي شاعراً

دراسة فنية تحليلية لأهم أغراضه الشعرية عنده

لفضيلة الدكتور أحمد جمال العمري

« هو محمد بن يحى بن عبد الله بن العباس بن محمد بن صول تكين ، أبو بكر الصولى البغدادى ، العالم الفقيه ، الأديب الكاتب ، الشاعر الناقد ، الإخبارى المؤرخ ، الشطرنجى النديم ، الذى عاش قرابة ثمانين عاما — (٢٥٥ — ٣٣٦ هـ) في فترة تولى الخلافة فيها أكثر من اثنى عشر خليفة ، نادم أربعة منهم ، واتصل بمعظم الباقين ، وكانت له مكانة مرموقة ، وسمعة حسنة لديهم جميعا ، ففتحوا له أبواب قلوبهم وقصورهم ، ليعيش في بلاطهم أكثر من نصف قرن من الزمان ، وليصادف ما لم يصادفه أحد من قبله ، وليشهد ما لم يشهده غيره من معاصريه (١) » . .

كان الصولى شاعراً فحلا بين فحول عصره الافذاذ — أبي تمام والبحترى وابن الرومى وغيرهم ، واستطاع أن يقف بين هؤلاء المشهورين منافسا قويا . . .

فهو شاعر جزل الألفاظ ، متخير الكلمات ، لا يجد مشقة في الأوزان ، ولا في اختيار القوافي ، اكتملت لديه نماذج الشعر العربي في مثاله العليا ، كان ولا شك

---

١ ـ انظر ترجمته فى :ارشاد الاديب لياقوت والاعلام للزركلى ، انباء الرواه للقفطى والانساب للسمعانى والبداية والنهاية فى التاريخ .

٢ ـ يوجد فى حوزتى ديوان ابى بكر الصولى مخطوطا محققا .

يسيطر على لغته ، ويتمثل التراث العربي في كلّ صوره وجُلّ معانيه وأغراضه تراثا ، واضحا جليا ، واستطاع أن يصوغ الكثير من المعاني الجميلة ، فيجيء بالجديد أو ما يشبه الجديد .

وشعر الصولى مرآة صادقة لنفسه ، وصورة صادقة لعصره ، وصورة صادقة للفن الخالص ، والأدب العالى . . نرى فيها كل ما أحسّ به في حياته المديدة من الحنين واللوعة ، والسعادة والتعاسة ، والرضا والحسرة ، ظهر كل ذلك واضحا في شعره ، فقد دفعته الأحاسيس النفسية إلى أن يعبر عن أعماق نفسه في جميع حالاتها ، كما دفعته حياته الخاصة في رحاب الخلفاء والامراء ، وما كان يتنسمه من عبير الحياة الرغدة في قصورهم إلى وصف المناظر الطبيعية ، والوقوف على ضفاف الأنهار ، وأن ينطلق لسانه بتصويرها مبيّنا أثرها في نفسه . .

ومن المهم أن نعرف أن الصولى ساير شعراء عصره . . مدح ورثي ، وتغزل ووصف وفاخر وصور مشاعره ازاء الناس والحياة ، كما كتب الرسائل الشعرية . .

ويكفى لكى نبرهن على شاعريته أن نقف أمام مجالين من مجالات الشعر عنده .

أحدهما غيريّ : وهو المديح ، والثاني ذاتيّ : وهو الفخر

المـــديح :

أكبر الموضوعات التى جال فيها الصولى بشعره وأهمها . . فن المديح ، ذلك الفن الذى يصل الشعراء العباسيين بالشعراء الأقدمين ، أولئك الذين ارتفعوا بهذا الفن إلى ذروته ، ثم ترسّم العباسيون خطاهم ، فتتبعوهم فيه ، ومعروف أن الشعراء القدامى اتخذوا من المديح أداة لتربية الخلق ، والحث على مكارم الاخلاق ، فكان الشاعر يمدح ممدوحيه بالكرم والشجاعة والاعتداد والإباء وغير ذلك من المثل العليا التى لم تكن ترجع إلى الفرد وحده ، بل تعود على الجماعة أو القبيلة كلها .

ولما جاء الاسلام صبغ هذه المثل الخلقية العربية بصبغة روحية ، فاخترعت المعاني الاسلامية التى تتحدث عن الايمان والعدل والتقوى ، فأضاف الشعراء الاسلاميون هذه الصفات إلى مدائحهم للخلفاء والوزراء . ولقد اتصلت المديحة العباسية بالمديحة

الاسلامية ، فالشعراء مضوا يتمسكون في مدائحهم بتصوير المثل الخلقية العربية وما أشاعه فيها الاسلام من مثالية روحية ، فأكثروا من مدح الخلفاء بالعدل والتقوى .

وقد اختلفت القصيدة العباسية عن القصيدة القديمة من حيث الموضوعات ، وإن كانت تسير على نهجها ، فهى تبدأ بمقدمة غزلية طللية ، ولكن قد يضيف إليها الشاعر العباسى بعض تحليلات لخواطره ازاء الحب ، كما يضع فيها تصويرا لمطامحه وآماله في الحياة ، وقد يضيف إلى ثناياها بعض الحكم ووصف الطبيعة ، وبعض العناصر الدينية .

فقصيدة المديح العباسية لم تكن مديحا خالصاً ، بل كانت تحمل في فاتحتها كثيرا من أحاسيس الشاعر ، وخلجات صدره ، كما كانت تحمل وصف الرياض والربيع والقصور ، ومقدمات أبي تمام يتجلى فيها هذا الجانب . وأيضا فإنه قدم لقصيدته في فتح عمورية بحديث طويل عن القوة والعقل ، وهاجم المنجمين وخرافاتهم ، وزعمهم الاطلاع على الغيب . وقد اشتهر البحترى كذلك بوضع المقدمات التى تصف الرياض والربيع ، كما تصف قصور الخلفاء .

كل ذلك كان تجديدا بلا شك من الشعراء العباسيين ، اختلفوا فيه عن الشعراء السابقين ، وعن منهجهم في التعبير ، وفي وصف الرحلة وتحمل المشاق ، وغير ذلك مما تطالعنا به قصائدهم ومدائحهم .

فإذا كانت هذه هى مقومات المديحة العباسية بوجهها الجديد — كما نراها عند أبي تمام والبحترى وغيرهما — فهل سار الصولى على نهجها وتتبع خطا شعراء عصره ؟ . . أو أنه اتبع طريقا آخر ومنهجا مغايراً ، فاستحدث أشياء أضافها إلى مدائحه ؟

الواقع أن الصولى وقد عاش في العصر العباسى ، ونهل مما نهل منه العباسيون شعراء وأدباء ، جاراهم فيما جروا فيه ، إلا أنه اختلف في منهجه ، وفي مديحه بعض الشئ ، فأضاف أشياء لم تكن موجودة عند نظرائه ، واختط لنفسه — في

مدائحه – منهجا يكاد يُعرف به ، ربما حدده له وضعه الديني والاجتماعي والأدبي ، وصلته بالخلفاء والأمراء والوزراء .

فإذا نظرنا في مدائح الصولي ، وجدناه يقدم لها أحيانا بمقدمات تختلف عن مقدمات معاصريه ، فنراه في مطالع مدائحه يبدل المقدمة الغزلية أو غيرها من المقدمات التي اصطنعها الشعراء الآخرون ، بوضع مقدمة أخرى تبين استبشار الناس وفرحتهم بحلول خليفة جديد أو أمير أو وزير – يأملون فيه أن يرجع هيبة الدولة ، وأمجاد الاسلام ، على نحو قوله في فاتحة ضاديته للخليفه الراضي بالله :

أصبح الملك عاليا بأبي العبـــــــــــــا	ّس أعلىَ الملوكِ بعدَ انخفاضِ
واستفاض السرور في سائر الـ	ناّسِ ، بملك المهذّبِ الفياضِ

فهو مستبشر مسرور لعلو الملك ثانية بحلول الخليفة الراضي ، الذى سيعيد المهابة إلى الخلافة الاسلامية ، بعد الضعف الذى أصابها من قبل ، ويقول إن السرور عم جميع المسلمين بتولى الخلافة رجل همام سيعيد للدولة مجدها وهيبتها بقوة عزيمته .

ويقول في مديحته السينية . ان الدهر قد ضحك بعد أن ظل عابساً مدة طويلة ، وأن السعد سيكون حليفا له وللمسلمين بعد أن لازمهم النحس طويلا ، وستلبس الأيام ثوب النعيم ، بعد أن لبست طويلا أثواب الشقاء ، لأن الله سبحانه وتعالى قد اختار للخلافة رجلاً قويا سيعيد لها هيبتها وجلالها بعد أن كانت كالربع الواهي الضعيف البناء .

يقـــول :

ضحك الدهر بعد طول عبوس	طالعاً بالسعود لا بالنحـــوسِ
وأتتنــــا الأيام معتــــذرات	لابسات نعيمها بعـــد بُوسِ
رضى الراضي الالـــهُ لمُلْـــك	أوضح النهج منه بعد الدروسِ
آنس الله بالخـــليفة ملـــكا	موحش الربع واهن التأسيسِ

ويمدح الخليفة الراضي بالله ، بأنه نسيم الحياة ، الذى أنعش الدهر وأضحكه ، ويشبه أيامه اللذيذة وسعادة الناس فيها بسعادة المحبين بالوصال ، وسعادة العروسين

في ليلة الزفاف ، وهما صورتان جديدتان برع الصولى في رسمهما ، يقول :

يا نسيم الحيـــاة أضحكت دهراً ... كان لـــولاكَ دائم التعبـــيسِ
إن أيـــامك اللذاذ كوصل الـ ... ـحب طيبا ونـــومة التعريسِ

وليس معنى ذلك أن جميع فواتح قصائده تسير على هذا المنوال ، فالصولى يجارى أيضا تيار عصره ، ويحاكى الشعراء المعاصرين التقليدين ، فيبدأ أحيانا بعض مدائحه بمقدمات غزلية مأثورة ، له فيها لفتات نادرة ، وصور رائعة ، من مثل قوله في مديحته الدالية للراضى :

متيّم متلفـــه تـــلدّده ... بان بين الهوى تجلده
طال عليه مدى الصدود فما ... يبصره في ضـــناه عُوّده
قد كتب الحب بالسقام له ... نظمـــه بمن أتي يفنـــده

على أن مقدمات مدائح الصولى لا تسير على وتيرة واحدة ، أو تنحصر في مجال واحد ، فنراه احيانا يخالف منهجه السابق ، فيجعل افتتاحيات قصائده شكوى لهمومه وأحزانه ، وتنفيسا عن تباريحه وأسقامه ، على نحو قوله في مقدمة ميميته لابن مقلة وزير الراضى :

أنا من بين ذا الـــورى مظلومُ ... وإذا ما خصـــمتهم مخصومُ
تتخطّـــاني الحظوظ فآسـى ... ومكـــاني من علمهم معـــلومُ
كم ترى في الزمانِ مثلى حتىّ ... لمْ يرُمنى الوزيرُ فيمَنْ يرومُ

وقد يخالف الصولى ما تواضع عليه الشعراء ، فلا يقدم لمدائحه بمقدمات ، بل يتناول موضوعه مباشرة ، كما فعل في مديحته النونية التى هنأ بها البريدىّ وزير المتقى لله ، بتوليه زمام الحكم .

واذا كان الصولى لا يقدم أحيانا لمدائحه للوزواء — فإنه قلما يمدح الخلفاء بقصائد دون أن يقدم لها بمقدمات غزلية أو استبشارية أو غيرها ، فلم نعثر إلا على مديحة

واحدة للراضي – وهي مديحته الزائية – بدأها الصولى بالدعاء للخليفة دون أن يقدم لها . . حيث قال :

بـــارك الله للأمير أبي العبـــا س خـــير المـــلوك في النيروز
وأراه أولاده الغـــــر أجـــدا رأ بملك نـــامٍ وعزٍّ عـــزيزِ

غير أن الصولى في معظم الأحيان يقدم لقصائده بمقدمات غزلية ، قد تطول أو تقصر حسب انفعاله ، وحالته النفسية ، فقد تكون بيتا واحداً – كما في داليته للخليفة المعتضد بالله (١) ، وقد تصل إلى العشرين بيتا كما في مقدمته لقصيدته البائية (٢) التي مدح بها الوزير ابن الفرات . وعموما فمقدماته الغزلية تتراوح بين الأربعة والخمسة الأبيات ، أما مقدماته الاستبشارية فهي دائما متوقفة على تولى الخلافة أو الوزارة أو الامارة .

واذا تركنا مقدمات مدائح الصولى إلى مدائحه نفسها ، وجدناه يجسم المثالية الخلقية تجسيما قويا في ممدوحيه ، فهو حين يمدح الخلفاء أو الوزراء أو الأمراء ، لا ينفصل عن منهج السابقين والمعاصرين ، حيث يتمثل المعاني العربية المتوارثة ، كالشجاعة والكرم والوفاء والإباء ، وغير ذلك مما يتصل بالاخلاق الفاضلة ، والخصال الحميدة ، .

فنراه يمدح الخليفة الراضي بالشجاعة ، وأن قواده وجنوده يستمدون منه القوة والمقدرة القتالية ، وأنه سيف على الخارجين عليه ، العاصين لأوامره ، وهو المقتدر المطفئُ لنار طغيانهم . . يقول :

جيوشـــه حوله كما حـــدقت بالبـــدر بـــدر التمام أسعده
سيف على مَنْ عصـــاك مقتـــدر تطفى به طغيـــانه وتغمـــده

---

١ – انظر مروج الذهب للمسعودى ٢٧٨/٤
٢ – اخبار الراضى بالله ص ٤٧

ويمدح قائده – ابن ياقوت – بالشجاعة والبأس ، وأنه قبلة الحرب ، المؤيد بنصر الله فيقول :

يا إمام الهدى استمع لـــولىٍّ | سائر في مديحــكم ركــاضِ
يفضل الناس في الشجاعة والبأس | كفضل الدّيس لابن مخــاضِ
قِبلة الحــرب حين تجتنب الحـ | ـب وتردى خيولها في العــراضِ

ويمدح الصولى الأمير توزون بالإقدام والفتك والجرأة يوم احتدام الوغى ، والتقاء الأقران ، فيقول . .

عرفت بإقدام وفتك وجــرأة | فما أحــد في كل ذلك ينكرك
إذا التقت الأقرانُ واحتدم الوغى | فسيفك بالنصر القريب يبشرك
وإن جر يوما عسكرا ذو تجمع | فسيفك فرداً في قتالك عسكرك

ويساير الصولى – في مدائحه – تيار الشعر المتوارث ، فيمدح الراضى بأكبر الصفات والمعاني التى كان يفاخر بها العرب وهى صفة الكرم حيث يقول :

أموالـــه نحونا موجهـــة | بنـــائل لا تحـــث وردّه
يعلى لنا الحال والمحـــل به | فـــلا ســؤال لـــه نردّده

ويبالغ في مديحه بالكرم ، فيصفه بأنه النبع الصافي الذى منه يرتوى الناس ، وأن جوده شمل كل من حوله ، وأن بشره زائد العطاء ، ويربط بين سخائه وصورة البرق الذى يلمع في السماء دليلاً على انهمار الغيث ، ويقول إن هذا العطاء والسخاء يأتي تكرما دون سؤال إنسان أو تذكير من أحد ، فالعطاء يجرى من يديه إلى الناس خالصا ، كما تجرى المياه من منابعها صافية .

يقـــول :

يردُ الناس منه أغـــدار جـــود | طيب الورد مـــترع الأحواضِ
بشره زائد العطاء كما الـــبر | ق دليـــل الغيوث بالإيمـــاضِ
صـــافيا من تكدر المطل يجرى | جرى ماء صافٍ على رضراض

ويضيف الصولى إلى هذين المعنيين المتوارثين — الشجاعة والكرم — معاني أخرى ، فنراه يمدح ممدوحيه بصفات أخرى تتصل بالناس وصلة الحكام بهم . فيمدح الراضى تارة بأنه المفرج للكروب ، وخير مَنْ يلوذ به الناس ويحتمون ، الوفي بالوعد ، السمح . . ويمدحه تارة أخرى بأنه المحسن الذى اكتسب حب الناس وطاعتهم له ، وتقديرهم لمكانته وفضله ، حتى لم يعد هناك إنسان يبغضه أو يسخط عليه لسماحة وجهه وعفوه . . يقول :

أحسنت حتى ما نرى متسخطا ... يشكو الزمان ولا نرى لك مبغضا
كم مبغض حطت إليك ركابه ... نال الغنى عجلا فأغنى المبغضا

ويضيف الصولى إلى مدائحه بالأخلاق الكريمة ، والخصال الحميدة وغيرها مدائح أخرى ، بعضها يتصل بالصفات الشخصية ، فيمدح الراضى بالذكاء ورقة الطبع . . فيقول :

رقيق حواشي الذهن هذب طبعه ... ومحص في قرب المدى أيما محص

وأنه لا يخونه الفهم ، ولا يسئ التقدير :

أرى ذكيا ذكت خواطره ... فلم يخن فهمه متلده

ويصفه بأنه البدر الذى أضاء دجى الظلماء ، والذى لم يأت خليفة مثله ، ولن يستطيع أن يصل إلى مرتبته إنسان فيقول :

بدر يضئ دجى الظلام ولم يزل ... لسواد ما تجنى الخطوب مبيضا
بكر الزمان فليس ينتج مثله ... أبداً ولا يلغي به متمخّضا
مَنْ شام عزك ذل دون منالـه ... أو رام ما رفعت منه تخفضا

كما يمدح ممدوحيه ببعض الصفات التى تتناسب مع مكانتهم الرسمية ، تلك التى تتصل بالحكم والسياسة وأمور الدولة ، نحو مديحه للراضى بسداد الرأى ، والتمسك بالوفاء ، وحسن تدبير أمور الرعية ، وتوجيه سياسة الوزراء والحجاب بما فيه صالح الشعب ، يقول :

يسل رأيا كالسيف وقفتـــه ... ويحتـــوى سيفه ويغمـــــده
تمسكا فيه بالوفـــــاء وما ... تقصر عما يريـــــده يده
يسوسهم بالسداد حاجبـــــه ... وهو بآرائـــه يســـــدده

ويمدحه أيضا بأنه القادر على الوصول إلى أهدافه ، الألوف ، العيّاف ، النهوض بالخطوب ، إذا ما واجهته المحن (١) . .

ويمدح الوزير ابن مقلة بالاستقلال بالرأى ، وأنه أعلم الزمان الذى لا تخفى عليه خافية ، وأنه ذو عزم ويقين ، وخير ناصح وأمين ، فيقول بين ثنايا مديحته الضادية للراضى :

أيّد الله ملكـــه بوزيـــــر ... مســـتقل برأيـــه نهّـــاضِ
عالم بالزمان قد راض منـــه ... جامحا آبيا على الـــرواضِ
لم يطف اليقين من ظـــنه الـ ... شك ولا حال دونه باعتراضِ
ناصح لم يخض ضحا ضح غش ... في الزمان الماضى مع الخواضِ

والصولى يجعل من مدائحه سجلا تاريخيا ، يتحدث فيها عن عائلة ممدوحيه وأنسابهم : آبائهم وأجدادهم ، فحين يمدح الخلفاء يشير دائما إلى انتسابهم للبيت النبوى الشريف ، الذى يعلو على كل البيوتات بالشرف والعز والمجد والنبوة ، ويجعل من هذا النسب وسيلة لرفعة الخلفاء ، والتفاف قلوب الناس حولهم . من مثل قوله في الراضى :

طاب أصلا وبابنه طاب فرعا ... غرس الملك منه خير غريس
قد أمر الزمان طـــوعا عليه ... فسخا بعد نفـــرة وشموس
فترى الناس خاضعين إليـــه ... من قيـــام بأمره وجلوس

ويشير في مديحته للخليفة المتقى لله ، إلى بنى العباس وفضلهم على الخلافة والاسلام ، وأنهم ملكوا الجبلين اللذين قام بهما الاسلام : النبوة والخلافة ، وأنه لولا وجودهم وقيامهم بأمر الدين لضعف نور الحق . . يقول :

---

١ ـ انظر اخبار الراضى ص ٧٩

ولولا بنو العباس عم محمد لأصبح نور الحق فيه خمولُ
لكم جبلا الله اللذان اصطفاهما يقومان بالاسلام حين يميلُ
نبوته ثم الخلافة بعدها وما لهما حتى اللقاء حويلُ

كما يمدح آباء ممدوحيه وأجدادهم بأهم الصفات والخصال التى برزوا فيها . فحين مدح الراضى بالله أشار إلى عدل أبيه المقتدر ، ومدحه بأنه العادل ، الذى أحيا عدله البرية حتى أن الناس سموه بالفاروق . يقول :

إلى ابن الذى أحيا البرية عدله فشبه بالفاروق منهم أبي حفص

وحين مدح ابن مقلة وزيره ، مدح آباءه بالشرف والمجد ، ووصفهم بأنهم نجوم الورى ، الساطعة دوما ، وأن المجد الموقوف عليهم ، والناس لهم عارفون ، ولعزيمتهم مقدرون لأنهم يملكون زمام السياسة والكتابة ، وأن قلمهم يجمع بين البيان والحسن ، ومدح كتابتهم بأنها كالرقوم الموشاة ، تحتوى أكمل المعاني وأجملها . يقول :

أنتم يا بنى علىّ نجوم للورى في الضياء ليست تغيم
خيمت فيكم محاسن خط لاح منها للناس در عظيم
قلم جامع بيانا وحسنا ما حوى فيه مثلكم إقليم
تتباهى به القراطيس حسنا مثل وشى تروق منه الرقوم
وغلام كأنه زهر الرو ض بدت للنجوم منه نجوم
قد أحاطت به عيون المعاني وأضاءت في جانبيه الظلوم

والصولى — في مدائحه — يضيف إلى كل العناصر السابقة التى تناولها . عناصر أخرى تتصل بأبرز سمات الممدوح ، ولقد كان من أبرز سمات الراضى بالله . : العلم والأدب : لذلك ركز الصولى على هذا العنصر تركيزاً شديداً ، فمدحه بأنه أجل الناس علماً ، وأن هذا العلم هو الذى أحيا سنن الدين بعد أن عفت ، كما مدحه بأنه الخطيب المفوه ، الذى يؤم المسلمين ، ويفعل ما كان يفعله النبي وخلفاؤه الراشدون . يقول :

أجلّ الناس آراء وعلما مقال ليس يقرن بالأفوك
وما أحياه من سنن تعفت فدار صلاحها دور الدموك
ركوب للمنابر سار قصدا إليها وهى حائرة السلوك
فذكرنا مقال منه فصل مقال المصطفى بجرى تبوك

ويمدحه بأنه نهل من جنان العلم الأنيقة ، ورياضه حتى كمل فيه الفضل والفضائل منذ كان صغيرا ، وأصبح بالعلم خير خليفة تولى إمرة المؤمنين .

على أن أهم عنصر يضيفه الصولى في مدائحه في الخلفاء — هو العنصر المتصل بالدين ، حيث يضمن مدائحه للخلفاء معاني تضفى عليهم صفات التقديس . فنراه يصف الراضى بأنه الامام الذى اختاره الله لينقذ الدين ، وأنه حاز كل المكرمات ، وحاز بها الكمال والمجد وحب الناس ، كما يمدحه بأنه حجة الله ، وأنه قبلة الدين ، التى يتجه إليها الناس في صلاتهم وحياتهم ، وأن طاعته واجبة وجوب طاعة الله ومن عصاه فله الموت والهلاك في الدنيا ، وثقل العذاب في الآخرة . يقول :

يا إماما إليه حلت عرا الفخـ ـر وفلّت معاقد الأغراض
حاز بالمكرمات كامل مجد علق الناس فيه بالأبعاض
حجة الله أنت يا قبلة الـ دين فليست ترد بالادحاض
أذن السيف من عصاك من الـ ناس بهلك واشك وانقراض (١)
وبثقل من العذاب ووزر ينقض الظهر أيما انقاض

ويقول أيضا . . إن الله أوحده في فضائله ، وأوجده من بدء الوجود ، يحميه ويكفله برعايته ، وينحس أعداءه ، ويلهمه السداد والتوفيق ، ويصل الصولى إلى قمة مديحه الدينى ، فيبالغ مبالغة شديدة حين يقول في مديحته الدالية للراضى : لو جاز لبشر أن يعبدوا غير الله ، لعبدوا الخليفة ومجدوه وسبحوا بحمده . يقول :

أوحده الله في فضائله فهو من بدء الكمال أوجده
كفاية الله تستطيف به تنحس أعداءه وتسعده
لو جاز أن يعبد العباد سوى الـ خالق كنا للبرّ نعبده

١ — البيت مختل الوزن دلل تصحيحه باعادة(واشك) الى (مواشك)

ويمدحه أيضا بأن كل ما في الوجود من محاسن مرجعه إليه ، فهو مالك الدهر ، والكل له مطيع ، فطاعته من طاعة الله . يقول :

محاسن هذا الخلق منك إبتداؤها ... ويجذبها ذو كلفة منك كاللص
فلا زلت للدهـــر المملك مالكا ... يطيعك فيما تشتهيه ولا يعصى

ويمدحه بأنه المعتلى بفخره ، والذى يهتدى بنور هديه الناس ، وانه إمام المسلمين . وعصمة أمرهم ودينهم ، يقول :

بعلوّ فخرك في المفـــاخر يُعتلى ... وبنورِ هديك في الديانة يُسْتضَا

ويمدح الراضى أيضا — بأنه كل الورى وسيد الناس ، والجميع عبيد له يأتمرون بأمره ، وينتهون بنهيه ، كبيرهم وصغيرهم ، أعلاهم وأدناهم ، ففى حياته حياة الناس ، وفي بقائه الفوز لهم والغنى والسداد ، ومن لا يؤمن بطاعته وحبه ، فلن تنفع له صلاة . . يقول :

فأسلم الله إمـــام الهـــــدى ... فما عطـــاء الدهر بالنحسِ
كل الورى أنت وكل يـــرى ... عبدك من عـــال ومن نكسِ
بقاؤك الفـــوز لنا والغـــنى ... نصـــبح فيه مثل ما نمسِ
من لا يرى حبك فرضاً فما ... أدى فروض الله في الخمسِ

والصولى يشير دائما — في مدائحه للخلفاء العباسيين — إلى فكرة الخلافة ، وأنهم أحق الناس بها لصلة الدم والعصب ، وأن الله ارتضاهم وفضلهم على العالمين ، واختارهم للخلافة واختارها لهم . من ذلك قوله : ان الله اختار الراضى خليفة له على الأرض، وهو كفء لذلك وراضٍ ، وأن الخلافة أتته طوعا ، ولم يطلبها أو يسعى إليها ، وهو الأحق بها ، المعان بقوة الله على أمورها :

بمحمدٍ رضى الإله خليفـــــة ... في الأرض فهو بذاك راضٍ مرتضى
جاءته طوعا لم يسيرٌ لفظـــــه ... فيها ، ولا أضـــحى لها متعرضا
فهو الحقيق بها ، المعانُ بقـــوة ... فيها بحكم فاصـــل لن يدحضا

ويقول في قصيدة أخرى – إن الخلافة خطرت نحوه طائعة بإجماع من الناس، فالكل عقد عليه العزم لارجاع مجد الاسلام ، حتى الزمان قد استلذ وفرح وترنم ، وجلى سواده القديم ببياض الأمل :

خطرت نحو الخلافة طوعا ... باتفاق من الــورى وتراضِ
واصطفاق من الأكف دراكـــا ... واجتماع موف وعزم مفاضِ
واستلذ /١/ إذ أسفر الملـــــ ... ـك وجلى سواده ببياضِ

وفي مديحته اللآمية للخليفة المتقى لله ، يخاطبه قائلا . . إن الخلافة أتتك قدراً مقدراً من العلى القدير ، الحافظ الوكيل ، وأنه حباك بها ، وصانها لك ، وأنه كفيل باتمام نعمته عليك ، ولو حِدْت عنها فإنهسيقودها إليك، فليس هناك كفء لها غيرك، فهو الذى اصطفاك لها واصطفاها لك :

أتتك اختياراً لا احتلابا خلافـــة ... لك الله فيها حافظ ووكيل
حباك بها من صانها لك انــــه ... باتمـــام نعماه عليـــك كفيل
ولو حدت عنها قادها بزمامها ... إليك اصطفاء الله وهى نـــزيل

ويسجل الصولى في مدائحه للخليفة كل الأحداث التى تحدث في عهده ، من انتصار في الحروب أو إخماد للفتن ، أو قضاء على المؤامرات ، فنراه يذكر – في مديحته للراضى – إخماد فتنة « مردواج » الذى حاول أن يناهض الخلافة ، غير أنه « بحكم » قضى عليه وأحبط مؤامرته .

ويقول للراضى . . لا تخش أعداءك من أمثال « مردواج » ، فهم جميعا يقتلون بقدرة الله ، لأن الله يؤيدك بنصره ، ويستعير صورتين من التاريخ ، يربط بهما بين أحداث العصر وأحداث الماضى ، فيربط بين جحافل جيوش المسلمين التى دخلت فارس فأطفأت نار المجوس ، وبين جحافل جيوش الراضى التى قضت على مردواج . ويربط بين سرعة انهيار ملك بلقيس وبين سرعة القضاء على هذا الخارج . فيقول للخليفة الراضى . . إن رياح أيامك الغر الميامن قصفته فأخمدت

١ – وهنا خلل مرده الى سقوط كلمة بعد(استلذ)

نار الفتنة التى أشعلها ، كما أخمد الفاتحون المسلمون نار المجوس ، فانهار العرش الذى بناه لنفسه ذلك اللعين ، وسلب منه سريعا . بل أسرع مما سلب العرش من يدى الملكة بلقيس . يقول :

مردواج بسيف حظك مقتـــل فأهون بذاك من مرمـــوس
قصـــفته رياح أيامك الغـــــر فأخمـــدت منه نـــار المجوس
ثـــل عرش اللعـــين أسرع مما سلب العرش من يدى بلقيس

وخصيصة بارزة في مدائح الرجل – وهى أنه دائما ينتقل من المجال الغيرى – المديح – إلى المجال الذاتي ، فيتحدث عن نفسه وعن أحواله في جميع مراحلها . فهو في كثير من مدائحه للخلفاء يذكر أنه السباق إلى مديحهم،وأنه يتقدم كل الناس بالرغم مما عاناه من كيد الكائدين وبغضهم ، وأنه اختار لهذه المدائح أشعاراً لم يُقَلْ مثلها ، ولا امتدح بمثلها خليفة من قبل ، وتقدم بها إلى الخليفة في قصيدة عصماء تناسب جلالته ومكانته . يقول :

وتقدمت في مديحى لـــه النـــاس على الرغم من ذوى الأبغاضِ
وافترعت الأبكار من عزة الشعر فذللت صعبها بامتضـــاضِ

ويقول أيضا :

لى سبق المديح منك على النـــاس وفخر بالسبق في التأسيسِ

ويقول : إن الشعر كثير ، يطلق في أناس وممدوحين مختلفين ، ولكن شعرى وقف على مديح أمير المؤمنين مقصور عليه ، لأنه أولى به وأقدر على تقييمه . .

يطلق الشعر في أناس وشـــعرى وقف مدح على الإمام حبيس

ويتحدث عن غبطته وسعادته لأن الخليفة اختاره ليكون له جليسا ونديما ، ويبين مدى سعادته ، لأنه يستمتع بعذب حديثه المستفاض، ويقول : انه بلغ غايته ومناه ، وبشره الناس بالغنى بعد الفقر ، والعز بعد الذل ، وأصبح ينام قرير العين مرتاح البال . يقول :

وتشرفت بالجلوس لــديــه بحديث يلتذه مســتفاض
وبلغت المــنى وبشرني الـــ ناس بثوب من الغنى فضاض
وتبدلت بالتــذلل عـــزا آذن الهم عنــده بانفضاض
واطمأن الفراش بعد أن جا نب جنبي تجنب النهــاض

ويذكر دائما ولاءه وصدق نصحه للخليفة ، وأن هذا النصح ، وهذا الولاء قديم ، وسيظل قائما ولن يشوبه أبداً زور أو رياء أو تدليس مهما طال الزمن أو اشتعل الرأس شيبا . يقول :

يا حلى الزمان يا زينــة الأر ض ورأس الملوك وابن الرءوس
إن نصحى وصدق ودى قــديم لم أَشُبْه بالزور والتدليس
قبل أن يأكل الزمان شبابــى خالساً غــرتي بشعر خليس

ولقد كانت مدائح الصولى مجالاً كبيرا لشكواه ، ومتنفسا عما بنفسه من أسقام وأحزان وما يقاسيه من مكائد ووشايات ، أو فقر وحرمان . فهو يضمن مدائحه شكواه من العانتين الحاقدين ، الذين لا يدخرون وسعاً في ثلبه ، وانتقاصه ، حتى صار لا ينام الليل ، وتكحلت عيناه بالسهاد والأرق ، لأنهم يحسدون صلته بالخليفة ، ولكنه يصرح بأن كل شئ يهون لأن الله عوّضه فقرّبه من الخليفة الذى يحس به ويقدّره . يقول :

زأرتنى أسود حقد عليــــكم لم تغيّب بغابــة وغيــاض
وفــراني الزمان منه بنــــاب بعدكم مرهف الشــبا عضاض
وانتحى آكلا للحمْـي ورض الـ عظم مــنى بكلكــل رضاض
من حسود منافس لى عليــكم لبحار اغتيــابكم خــواض
مبغض لى لمــا أسـير فيــكم من مديح ، على الأذى حضاض
فأراني الاله ما كنت أرجـــو ه وعوضت أحسن الاعتياض

والصولى في مجال حديثه عن نفسه وشكواه ، لا يشكو حساده وعذّاله والكائدين والواشين فحسب ، بل يشكو أيضا شيخوخته ومرضه وضعف قوته ، كما يشكو كبر سنّه بعد أن ناهر السبعين ، وأصبح لا يهنأ بالحياة أو النوم . . بل هو منتظر يومه الموعود وقدره المكتوب . يقول للراضى :

صرّحت بالشكوى إليك تأنساً ... بندى يديك إذا غريب عرضا
من بعد ما غالَ المشيب شبيبتي ... ونضا لباس تجملي فيما نضا
وأحارني مرضي وأوهن قوتي ... فغدوت منه وقد صححت ممرضا
وإذا دنت سبعون من متأملٍ ... داني ولم ير في اللذاذة مركضا
وجفاه نوم كان يألف جفنه ... قدما وأضحى للحتوف معرضا

ويتذكر حياته الرغدة السابقة ، وشبابه الفائت الذى لن يعود . . فيبكى قائلا :

أبكى كساء كان أوثق عدتي ... إن أخصر البرد العظام ونقضا
ومخدة قد كان يألف لينها ... خدى فأضحى الجسم منها ممرضا
ونفيس فرش كالرياض نقوشه ... ما كان من دون الرياش مرحضا
ومجمعا قد كنت أجمع آلة ... فيه وكان من البلاء مفضفضا

غير أن هذه الشكوى وهذا البكاء — في شعره — يصلان أحيانا إلى حد الاستجداء والذل فيظهر في شعره جانب الضعف الانساني ، حيث يرتفع نحيبه وخوفه من المصير والمستقبل والفقر . ولا شك أن هذه الظاهرة كانت سببا في أن بعض الباحثين (١) وصموه وعابوه .

والحقيقة إن هذه سمة بارزة في شعره ، فهو دائم الاستجداء سواء من الخلفاء أو الوزراء — إن تلميحا . . وإن تصريحا — من مثل قوله للخليفة الراضى بالله ، مشيرا إلى ما بينه وبين دهره من صراع وحرب عوان ، فيشكو ذل الحاجة ومر السؤال ، استجداء للجود ، وطمعا في العطاء . .

إن بيني وبين دهري حربا ... جاوزت حرب داحسٍ والبسوسِ
أنا منه لغير هجر ووصل ... واقف بين لوعة ورسيسِ
فاعتبر ما شكاه عبدك منه ... ثم داو الخناق بالتنفيسِ
هو في مخلب الزمان فريس ... فارحم الآن نفس هذا الفريسِ
واسقه من سلاف جودك بذلا ... فاق طيبا سلافة الخندريسِ

وقد يرتفع استجداء الصولى لكى يصل الى درجة التصريح فيقول :

لا والذى أنت منه نعمة ملأت ... عرض البلاد وحلت حبوة النوب

---

١ ـ محمد كرد على : كنوز الاجداد ص ١٤٤

ما في عبيدك ان فتّشت أمرهم   أقل مني في رزقي وفي نشبي

هذه هي مدائح الصولى – للخلفاء والأمراء والوزراء – بكل عناصرها وخصائصها ، وهي تشتمل على عناصر بعضها جديد من عنده ، وبعضها موروث ، ولكنه في العناصر الموروثة استعاد صوراً جديدة ، فظهرت في أزهى حلة وأبهى زينة . .

أما العناصر التي استحدثها الصولى في مدائحه فهي :

(أ) أنه أضاف إلى المقدمات الغزلية مقدمات أخرى تحمل الأمل والاستبشار بحلول خليفة أو وزير أو أمير جديد قوى ، يستطيع أن يزيح الغمة عن كاهل الأمة ، ويعيد للدولة وللخلافة هيبتها وجلالها وقوتها ، كما أنه أضاف أيضا مقدمات بث فيها شكواه وهمّه وأحزانه ، وما يكابده من أسقام ، غير أنه لم يجعل ذلك منهجا مضطرداً في كل قصائده ، بل تجده في كثير من الأحيان يخرج عن القاعدة المتبعة عند الشعراء والمتوارثة عبر الأجيال ، فيحذف المقدمة الغزلية أو غيرها ، فيبدأ قصائده بالمديح مباشرة .

(ب) أنه أضاف إلى مديحه بالمعاني الدُنيوية – مديحا بالعلم والأدب ، وسعة الاطلاع والثقافة وكبر العقل ، واتقاد الذهن ، ورقة الطبع ، وبشاشة الوجه ، وأيضا مديحا بالاحسان وحب الناس وغير ذلك .

(ج) أن مديح الصولى بالمعاني الدينية لم يكن وقفا على المديح بالتقوى والعدل والورع وطاعة الله ، بل كان يتعدى ذلك إلى مديحه بأنه الخليفة المختار ، الذى فضله الله ، وأيده بنصره لينقذ دينه ، وأنه عماد الدين ، وعزة الاسلام ، المهتدى بنوره ، كما مدحه بأنه المحيي لسنن الدين ، الخطيب المفوّه ، الذى يؤم المسلمين ، ويفعل مثلما فعل النبي وخلفاؤه الراشدون ، وأنه ينتسب إلى أشرف البيوتات ، وأعلاها وهو البيت النبوى الشريف ، كما مدح آباءه وأجداده بتوارث الشرف ، وأن الخلافة حق فيهم ، جاءتهم بقدر الله . . الخ .

(د) أن الصولى يضمن هذه المدائح حديثا عن نفسه وعن خواطره ، وما منيّ به النفس ، ويذكر الصلة بينه وبين الخليفة ، وأنه السباق إلى مديحه بمدائح لم يقل مثلها ، كما يذكر أنه كان يتشرف بالجلوس في رحابه ، وأن الخليفة كان يفسح له أقرب مكان وأنه نعم ببره وعطاياه كما كان الصولى يضمن هذه المدائح شكواه من الحاسدين والواشين ، وشكواه من الزمن .

وقد أضاف الصولى إلى هذه العناصر – عناصر أخرى تدوولت من قبل ، وهى ذكر حوادث عصر الخليفة كانتصار في حرب ، أو إخماد فتنة ، أو القضاء على مؤامرة ، وغير ذلك .

وفي ثنايا مدح الصولى للخلفاء ، مدح أيضاً قوادهم وامراء أمرائهم ، ووصفهم بالجرأة والشجاعة ، والبأس والإقدام ورباطة الجأش ، وأضاف إلى ذلك كله مديحا لهم بأنهم مخمدو الفتن ، وقبلة الحرب ، وسيوف الخلافة الى غير ذلك من الصفات التى يجب أن تتوافر في رجال الحرب . . كما مدح معاونيهم وكتابهم الذين يدبرون أمورهم .

ويمكن القول – إن المديحة الصولية كانت مديحة رسمية أو شبه رسمية ، كانت مقيدة بظروف تختلف عما عند الشعراء الآخرين الذين يتكسبون من عرض بضاعتهم على الخليفة ، فينالون بره وعطاءه ثم يرحلون . . لكن مدائح الصولى كانت أشبه بوثائق تاريخية ، وتعاليم دينية ، يسجل فيها كل ما يتصل بالخليفة وعلاقته بالمسلمين من حيث وجوب الطاعة له ، والايمان به ، ورفعه فوق مصاف العباد ، وأيضا ما يتصل بالدولة من أحوال وسياسة وحروب وأحداث .

وقد دفع الصولى إلى نظم مثل تلك المدائح . . وبكل هذه العناصر اتصاله ببلاط الخلافة وبالوزراء والأمراء .

وتبرز عواطف الصولى الدينية بروزا واضحا في مدائحه للخليفة ، بل انه ليمكن القول . . إنه من خير من مثّل هذه العواطف الدينية تمثيلا حقيقيا صادقا ، فهذه العواطف لم توجد بنفس العمق ، والمعاني عند نظرائه ومعاصريه ، ذلك لأنه لم يكن شاعراً محترفا يبغى أجراً ، بقدر ما كان يريد إظهار ولأنه وحبه للخلفاء .

ونستطيع أن نقول – إن مدائح الصولى الدينية بعمقها ومضمونها – كانت إرهاصا بظهور هذه المدائح الدينية بصورتها الضخمة بعدئذ عند شعراء الدولة الفاطمية . .

كذلك – فإن شكواه من الزمن ومن الوشاة والحاقدين ، كانت ينبوعا استقى

منه كل الشعراء الذين أتوا بعده خاصة « المتنبي » — الذى أخذ من معاني الصولى الكثير . خصوصا ما يتصل بشكوى الزمن ، والحديث عن شعره . .

★ ★ ★

تعقيب لا تثريب :

لعل من الانصاف لحق الأدب أن نصرح بمخالفتنا للصديق الدكتور العمرى في ما ذهب إليه من إكبار لشعر الصولي إذ اعتبره — في مقدمة البحث — شاعراً فحلاً بين فحول عصره الأفذاذ — ووصف شعره بأنه (جزل الألفاظ متخير الكلمات ، لا يجد مشقة في الأوزان ، ولا في اختيار القوافي . .) . ثم ختم تقديره إياه بما أورده في نهاية البحث من اعتبار مدائحه إرهاصاً لظهور المدائح الدينية بصورتها الضخمة . . وأن شعره في الشكوى كان ينبوعاً استقى منه أمثال المتنبي . . الخ .

والذى نراه أن في النماذج التي عرضها الدكتور من مدائح الصولي وشكاواه ما يعكس الحكم ، إذ نرى الشاعر في معظم هذه الشواهد — منهوك الطاقة ، تخونه الألفاظ والمعاني والقوافي ، فتأتي تعابيره قلقة تشكو حيرتها وغربتها . . ومن حيث المعاني لا نكاد نجد فيها جديداً بل ربما أمكن ردها إلى الكثير من أقاويل الشعراء من معاصريه وسابقيه ، مع تفاوت كبير في عفويتهم وتكلفه البالغ حد العجز .— اللهم إلا أبياتاً قليلة لا تكاد تنجو من التهافت —

ثم كلمة أخيرة وهى أن الدكتور يقرر أن الصولي — في مدائحه — لم يكن شاعرا محترفاً يبغى أجراً . . ونسى حفظه الله ما أسلف هو من حكم عليه بأنه دائم الاستجداء إلى حد الذل » ! وماذا يبقى لشاعر من كرامة بعد قوله لممدوحيه :

ما في عبيدك إن فتشتَ أمرهمُ أقلُّ مني في رزقي وفي نشبي !

ومعذرة للصديق العزيز مع خالص التقدير لجهوده المشكورة . .

المجـــذوب